

أَبُو الْأَعْيُنِ الْمَوْدُودِيُّ

المبادئ الأساسية
لفهم القرآن

دار التراث العربي
للطباعة والنشر

١٠٤

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : وبعد .

أسلوب الوعي وأسلوب البشر في الكتابة :

ان الكتب التي ندرسها عامة نجد أن جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه ، بأسلوب تأليفي وبصورة منسجمة . ولأجل ذلك فالدارس الذي ليس له عهدا بالقرآن ، اذا أراد أن يدرسه أول مرة في حياته فانما يتناوله وهو على ظن أنه باعتباره « كتابا » سيكون على غرار عامة الكتب التي تعود قراءتها ، قد حدد موضوعه المنشود ، ثم قسم هذا الموضوع الى أبواب وفصول ، وكذلك يظن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الانسانية على وجه الاستقلال بالبحث والعرض ليسرد ما يتعلق بها من أحكام وتعاليم بترتيب متسلسل . الا أن الدارس اذا بدأ يتصفح هذا الكتاب يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، فيجد أسلوبا لم يألّفه من قبل ، اذ أنه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية ، والأحكام الشرعية ، والدعوة والنصيحة ، والعبرة والنقد ، والزجر والتخويف والترغيب ، والحجج والشواهد ، والقصص التاريخية ، والاشارات الى آيات الله في الكون . كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين ، ويبدأ ويعاد بوجوه متباينة وأساليب متنوعة . كما أنه بينما يطرق موضوعا فاذا به يولى وجهه شطر موضوع ثان وثالث . بل يكون الأمر أغرب من ذلك ، حين يبتدىء موضوع ثم يتخلله موضوع آخر

«بغته . كما يتبدل المخاطب والمتكلم بين حين وآخر . وتتجه وجهة
المحاوره الى جهات مختلفة مرة بعد أخرى .

أما تقسيم المواضيع والمباحث الى أبواب وفصول فلا عين له
ولا أثر وإذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش على الأسلوب السائد
لكتابة التاريخ . وإذا سيقّت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور
ما وراء الطبيعة ، لم تسبق في مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة
والمنطق ، وإذا ذكر الانسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على
منهج للعلوم الطبيعية . وإذا تطرق الموضوع الى شؤون المدنية أو
السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع
في البحث والتمحيص . وإذا أتى على ذكر من الأحكام القانونية
وأصول التشريع لم يأت بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء
التقنين في هذا المجال . وإذا عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة
السلوك رايته يختار لها النمط الذي يغير سائر ما كتب ودون في
هذا الباب .

ان الدارس اذا وجد هذا وأمثاله على غير ما ألفه من أساليب
الكتابة وأنماط البيان ، وعكس ما تعود من مناهج التعبير تأخذه
الدهشة ويبدأ يستشعر أن هذا الكتاب ينقصه الترتيب ويعوزه
التنسيق ويشكل من أوله الى آخره مجموعة من شذور متناثرة وقطع
مبعثرة جمعت في عبارات متسلسلة وحلقات منماسة .

أما الدارس الذي لم يؤمن بهذا الكتاب ، ولا يريد من دراسته
الا اشارة الشبهات ، فهو يجد في فقدان الترتيب والتنسيق متسعا
لاشارة الاعتراضات المنوعة حول الكتاب . وأما المؤمن به والخاضع
له فتتجاذبه المواقف والأطوار .

فمرة يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته . وأخرى يطمئن
قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق الظاهري .

ورابعة يستسلم لفكرة « شذور متناثرة » فتصبح كل آية من آياته معزولة عن السياق العام . وتعود مسرحا لابتكار المعانى التى تخالف ما يريده العزيز الحكيم .

معلومات أولية ضرورية :

ولكى نتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب ، من الضرورى جدا أن يكون الدارس قبل كل شىء على معرفة بموضوع الكتاب ، وعلى علم مسبق بمقاصده وغايته المتوخاة والبحث الرئيسى فيه ، وعلى الاطلاع بطرائق أسلوبه ، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخاص فى التعبير وأن لا يغيب عن نظره الأوضاع والملابسات التى تكمن وراء ألفاظه ونصوصه .

ان عامة الكتب التى ندرسها نجد فيها الجوانب التى أشرت اليها بكل سهولة ، ولذلك لا نلقى صعوبة فى استكناه أسرارها وبلوغ مغزاها . ولكننا لا نعثر عليها فى القرآن بالشكل الذى تعودناه فى غيره من الكتب . ولذلك اذا بدأ يدرسه أحد منا لعامة الكتب فلن يستطيع التعرف فى موضوعه وغايته وبحته الرئيسى ، وسيستغرب أسلوب بيانه وطراز تعبيره ، ويعزب عن نظره الملابسات الكامنة وراء ألفاظه فى معظم المواضع .

ونتيجة لذلك فانه يحرم من التوصل الى روح كلام الله ، ورغم استفادته قليلا أو كثيرا من لآلىء الحكم القرآنية المشرقة المتناثرة . وبالتالي يضطر الى الاكتفاء بحفنة من حكم مبعثرة والى اقتطاف قبضة من زهور متناثرة بدلا من أن يلم بعلم الكتاب ويطول فيه بابه . بل ان بعض الناس الذين يقعون فى شبهات وأخطاء بعد دراسة القرآن ، يعزى سبب ضلالهم الى أنهم قرأوا القرآن دون سابق المام بالقواعد اللازمة لنهمه نصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة

متناثرة في صفحاته ، ولم يظهر لهم مغزى كثير من آياته ، ورأوا العديد من الآيات كأنها جواهر تتلألأ بنور من الحكمة الربانية ، ولكنها فيما يبدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة ، وكثيرا ما قذفهم جهلهم بأساليب القرآن التعبيرية ، وأنماطه البيانية الى معان غير مقصودة . كما وقعوا في ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لأنهم ما عرفوا أسباب نزولها .

القرآن من أى أنواع الكتب ؟ وما هى كيفية نزوله ؟ وما هو سر ترتيبه ؟ وما هو الموضوع الذى يدور حوله كل نقاشه ؟ وما هى الغاية التى يتوخاها من بحثه ؟ وما هو البحث الرئيسى الذى يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث متنوعة ومواضيع مختلفة ؟ وأى لون من الاستدلال وأى نمط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف اليه .

هذه وأمثالها من الأسئلة المهمة اذا وقف الانسان على الردود عليها فى مطلع الامر فانه يستطيع أن يتفادى كثيرا من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرآن كما تتوسع فى وجهه سبيل فهمه وتدبره . ومما لا خلاف فيه أن الذى يريد فى القرآن الترتيب التأليفى المتداول ثم يتخبط فى صفحاته خبط عشواء اذا لم يبلغ ما يريد ، فان مبعث تخبطه ومثار حيرته ليس الا أنه لم يتعلم ما لدراسة القرآن وفهمه من أصول وقواعد ولأنه بدأ يطالع القرآن ظنا منه أنه يطالع « كتابا » موضوعه « الدين » ويكون فى تصوره « للكتاب » و « للدين » على ما يكون فى أذهان عامة الناس من تصور « للدين » و « للكتاب » بيد أنه حين يواجه فى هذا الكتاب ما يختلف عن تصوره الذهنى يجد نفسه لا تأنس اليه . ويظل يتيه بين دفتى الكتاب لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق فى بحثه ويكون مثله فى ذلك كمثل النزيل الغريب الذى يهيم على وجهه فى دروب محينة كبيرة ويمكن أن يتفادى هذا الضياع لو أخبر مقدما بأن الكتاب الذى يريد دراسته هو نسيج وحده فى عالم التأليف . وتم « تأليفه »

على نمط لم يتم عليه تأليف الكتب الأخرى • كما أنه فذ فريد باعتبار موضوعه وبحثه وترتيبه •

فالمقالب العام للكتاب كما تتصوره نتيجة دراستك للكتب المؤلفات حتى اليوم لا يسعفك في تفهم هذا الكتاب أبدا ، بل ويثير الحواجز دون طريقك • وإذا أحببت أن تفهمه ، عليك أن تبعد عن ذهنك كل ما أثبت فيه من تصورات وقياسات ، وأن تدرك ما لهذا الكتاب من خصائص بديعة ومزايا رائعة •

أصل القرآن :

يجب على قارئ القرآن أن يعرف قبل كل شيء « أصل » القرآن سواء آمن به أو لم يؤمن به • لأنه ما دام يريد فهم هذا الكتاب فلا بد له أن يقبل ابتداء أصله كما ورد فيه وكما بينه الذي أنزل عليه هذا الكتاب وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم •

ويمكن أن يتضح أصل القرآن في النقاط الآتية :

١ - ان الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ومالكه وحاكمه ، خلق الانسان في جزء يسمى « بالكوكب الأرضي » من أجزاء مملكته التي لا نهاية لها وأودعه قوى العالم والتفكير والادراك ، وألهمه تمييز الخبيث من الطيب ، وأعطاه حرية في الإدارة والاختيار ، ومنحه سلطة للتصرف في الأمور كما يشاء ، وخوله نوعا من الاستقلال (Autonomy) واستخلفه في الأرض •

٢ - وحينما عهد الله تعالى الى الانسان بهذا المنصب الخطير ، أثبت في قرارة نفسه هذه المعاني ، انى أنا ربك ورب هذا العالم ، والهك واله هذا العالم ، وحاكمك وحاكم هذا العالم فلا تكن في مملكتي هذه حرا طليقا تتركب رأسك ، ولا تكن عبدا لغيري فلا أحد غيري

يستحق أن تطيعه وتعبدته وتخضع أمامه وإن الحياة الدنيا التي أعطيت فيها نوعاً من الاستقلال إنما هي فترة امتحان ترجع إلى بعد انتهائها فأفحص ما عملت فيها ، وأفصل في أمر من نجح ومن رسب . وأصبح منهج تختاره في هذه الدنيا : أن تتخذني الهك الواحد وحاكمك الفرد ، وتعمل حسب ما أنزل من عدي ، وأن تعيش وأنت تشعر بأن الدنيا دار للامتحان ، وأن غرضك الحقيقي هو أن تنجح في الآخرة . وعليك أن تعلم أيضاً أن كل منهج يخالف هذا المنهج خطئ هو خطأ . وأنت أن اتبعت المنهج الأول (وأنت حر في أن تتبعه) فلن تتمتع في الدنيا فحسب بالآل والأطمئنان ، بل سأنعم عليك حين ترجع إلى ، بدار اسمها « الجنة » تجد فيها نعيمًا مقيمًا وراحة أبدية ، ولا يمسك فيها نصب ولا لغوب . وإن سلكت منهجاً آخر غير هذا المنهج (وأنت حر في أن تسلكه) فلن تذوق في الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار ، بل حينما تعبر هذا العالم إلى عالم الآخرة سيكون مصيرك إلى هاوية النار فيها عذاب خالد وألم دائم وغم أبدي .

٣ - أسكن الله مالك الكون النوع البشري في الأرض بعد أن ثبت في قرارة نفسه المعاني السابقة كما أنه جل شأنه أتى الإنسان الأول وزوجه - آدم وحواء عليهما السلام - هدى من عنده ليتبعاه ، هما وزريتهما في الأرض . ولم يخلق الإنسان الأول في حالة الجهل والظلام . بل إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء ليبدأ حياتهما في الأرض على حالة من النور والعلم . فكان الإنسان الأول يعرف ما هو الحق ، ويعلم ما ينبغي له عمله من قانون للحياة وكان منهجه في الحياة طاعة الله (أي الإسلام) . ووصى بدوره ذريته بأن لا يطيعوا إلا الله ولا يموتوا إلا وهم مسلمون إلا أن الإنسان قد حاد عن المنهج الصحيح (أي الدين القيم) في القرون المتعاقبة رويداً رويداً ، واتبع السبل المعوجة والناهج المنحرفة المتضاربة وضل عن الطريق السوي بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابرة مرة أخرى .

فأشرك بالله فى ذاته وصفاته ذواتا عديدة من السماء والأرض ،
 وهمية ومادية ، بشرية وغير بشرية • وخلق أنواعا من الأوهام وضروبا
 من النظريات وألوانا من الفلسفات ينبع طاهر من العلم (أى علم
 الحق) الذى آتاه الله ، وصنع من ذلك مذاهب لا عد لها ولا حصر ،
 ونبذ وراء ظهره ما قرره الله من مبادئ عادلة للأخلاق والمدنية
 (أى الشريعة) أو مسخها • ثم وضع كما أوحى له هواه وعصبيته
 نظما ومناهج للحياة ملأت أرض الله ظلما وفسادا وبورا وشقاء •

٤ - ان الله الذى أعطى الانسان ذلك الاستقلال المحدود لم
 يتدخل - بصفة كونه تعالى خالقا - فى رد من ضل وغوى من الناس
 الى المنهج الصحيح بالقهر والقسر كما أن المهلة التى منحها الله للانسان
 ليعمل فى الدنيا بحرية ، لم يكن ليناسبها أن يأخذه ويهلكه بمجرد
 شقه عصا طاعته واتباعه طريق البغى • ثم ان الله سبحانه وتعالى
 قد أوجب على نفسه منذ بدء الخليقة أن يدبر للانسان طرق هدايته
 مع اقرار استقلاله فى فترة المهلة التى أعطاه اياها ، وتحقيقا لما
 أوجبه الله تعالى على نفسه بارادته المطلقة اصطفى الله من النوع
 البشرى رجالا آمنوا به وابتغوا مرضاته ، واتخذهم مبعوثين له ،
 وأوحى اليهم علم الحق ، وأنزل عليهم منهجا صحيحا للحياة ، وأمرهم
 بأن يدعوا الناس الى الصراط المستقيم الذى عدلوا عنه •

٥ - بعث هؤلاء الرسل الى مختلف الأمم ومختلف الاقطار ،
 واستمرت سلسلة رسلهم آلافا من السنين ، وكانوا آلافا مؤلفة ،
 وكانوا على دين واحد أى نفس المنهج الصحيح الذى علمه الله الانسان
 منذ هبط الى الأرض • وكانوا يتبعون هديا واحدا ، أى نفس المبادئ
 الخالدة العادلة للأخلاق والمدنية التى قررها الله تعالى للانسان فى
 بداية الأمر • وكانوا يرمون الى غرض واحد أى دعوة النوع البشرى
 الى دين الله وهدايته • ثم ان الذين قبلوا دعوتهم نظمهم وجعلوهم
 أمة واحدة ، تتبع أحكام ربها وتطيع المنهج الالهى فى الدنيا ،

وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا المنهج • ان رسل الله قاموا بتحقيق ما أرسلوا به على أكمل وجه • الا أن الذى حصل على مدار التاريخ هو أنه لم يلتفت العدد الكثير من الناس الى دعوتهم • كما أن الذين آمنوا بدعوتهم واتبعوهم وأصبحوا أمة مسلمة قد أخذوا فى الفساد والضلال على مر الأيام وكر اللبالي • فمنهم من ضل عن الحق كل الضلال ، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرف الكلم عن مواضعه وكتب فيها ببيده •

٦ - وأخيرا بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم فى أرض العرب بنفس المهمة التى بعث بها من سبق من الأنبياء والرسل • فكانت دعوته صلى الله عليه وسلم لكافة الناس بما فيهم أتباع الأنبياء الذين خلوا من قبله • كانت مهمته صلى الله عليه وسلم دعوة الناس كافة الى المنهج الصحيح ، وتبليغهم هداية الله من جديد ، وجعل من آمنوا بهذه الدعوة أمة واحدة ، تقيم نظام حياتها على هدى من الله ثم تخرج لهداية الدنيا واصلاحها • وان هذا القرآن هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذى أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فيه هدى ونور ، يهdy به من يشاء من عباده •

موضوع القرآن وبحثه الرئيسى وهدفه :

والآن وقد عرف القارئ « أصل » القرآن ، يمكنه أن يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب ، وما هو بحثه الرئيسى ، وما هو هدفه المنشود •

فموضوعه « الانسان » : ما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسارته وشقائه •

وبحثه الرئيسى : أن النظريات التى وضعها الانسان عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الاله ، مدفوعا بدراسته

السطحية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء ، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك النظريات فانها كلها فى حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير وانما الحق هو الذى علمه الله الانسان حين جعله خليفة له فى الأرض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العقوبة الحسنة الا المنهج الذى ذكرناه فيما سبق وسميناه : « المنهج الصحيح » .

وهدفه : دعوة الانسان الى هذا المنهج الصحيح ، وتبيان لهدى الله الذى ضل عنه الانسان بعدم المبالاة ، أو شوهه بدائع من غروره ومكابرتة .

والذى يدرس القرآن واضعا هذه النقاط الثلاث الأساسية امام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، أن هذا الكتاب لم يحد عن موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه المنشود ، حتى ولا قيد شعرة . وتجد مباحثه المتنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسى التئام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة فى سمط القلادة السندسى . انه يحدث عن السماء كيف صنعت ، وعن الانسان كيف خلق ، وعن المساعدات فى آثار الكون . وعن الأمم الخالية وقصصها . انه ينتقد أعمال مختلف الأمم وسلوكها وعقائدها . أنه يوضح الشؤون والمسائل التى طى وراء الطبيعة . انه يتناول أمورا كثيرة غير ما ذكرنا . لا ليدرس الانسان علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو أى فن من الفنون أو أدب من الآداب ، بل لكى يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق ، ويقرر فى أذهانهم الحقيقة الواقعية ، ويشعرهم بما يؤدى اليه المنهج الذى يخالف الحق من مصير بئيس وعاقبة وخيمة ، ويدعوهم الى المنهج الذى يلائم الحق ويأخذهم الى حسن المآب . ولهذا السبب نفسه هو لا يحدث عن كل هذه الأمور الا فى أسلوب يتناسب مع هدفه ، والى حد يلزم له . ومن دأبه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود

الى بيان هدفه وبحته الرئيسى بغض النظر عن التفاصيل التى لا علاقة لها بالبحث . ولذلك ترى حديثه يدور حول « الدعوة » بدون التواء وبكل اتزان .

غير أنه من الصعب على الانسان أن يفهم الأسلوب البيانى للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه ما دام لا يعرف كيفية نزوله .

مراحل نزول القرآن :

ليس القرآن بكتاب أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ثم أمره بنشره ودعوة الناس الى ما فيه من منهج خاص للحياة البشرية . كما أنه ليس بكتاب عرض فيه موضوعه وبحته الرئيسى على غرار أسلوب التأليف الشائع ولأجل ذلك لا تجد فيه الترتيب الذى هو من شأن المؤلفات الانسانية ، ولا الأسلوب البيانى الذى هو من شأن كتب الدنيا . وهذا الكتاب فى حقيقة الأمر من نوع فريد .

المرحلة الأولى :

وقصته أن الله تعالى قد اصطفى عبدا من عباده فى مكة - احدى مدن جزيرة العرب - لرسالته ، وأمره أن يبدأ بدعوته فى مدينته وفى عشيرته (قريش) ، وقد لقنه التعاليم التى لا بد منها للشروع فى هذه المهمة . وهذه التعاليم الابتدائية كانت فى معظمها تحتوى على ثلاث نواح :

أولا : تعليم الرسول كيف يعد نفسه لتحقيق هذا الأمر الجليل وعلى أى طراز يسعى سعيه .

ثانيا : المعلومات الاولى عن الحق ، والرد الاجمالى على ما كان فى أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات وأخطاء عن الحق جعلت منهجهم فى عمى وضلال .

ثالثا : دعوة الناس الى المنهج الصحيح ، وايضاح مبادئ الاخلاق الرئيسية التى يحتضنها الهدى الالهى والتى فى اقتباعها نجاح الانسان وسعادته .

كانت هذه المعانى الاولى تحتوى على شذور موجزة تناسب مرحلة انطلاق الدعوة فى لغتها الرفيعة ، وفى حلاوتها المتناهية ، وفى تأثيرها البالغ وهى فى أعلى درجات الذوق الأدبى الذى كان يساير مستوى ذوق المخاطب لتنطبع هذه الشذور الزمردية من النغم الالهى فى قلوب القوم انطباع السهم فى الصدور ولتميل اليها الآذان مستجيبه لترنمها الساحر ، ولتجرى اللسان بتريديها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق .

ثم ان هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الأوضاع المحلية الى حد كبير ، وان كان الحديث فيها يدور حول الحقائق الكونية الخالدة ولكن الدلائل التى كانت تساق لها ، والشواهد التى كانت تشير اليها ، والنظائر التى كانت تؤتى بها ، كانت تلتقط كلها من البيئة المجاورة المألوفة للناس . فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم ، وما قص فيها من الأحداث فهى أحداثهم وتقاليدهم ، وما ذكر فيها من الآثار فهى مما كانوا يشاهدونه بأم أعينهم ، وما ردد فيها من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية ، ومساوئهم الخلقية ، وغيوبهم الاجتماعية . وذلك لكى تصير هذه الدعوة أوقع فى نفوسهم وأقرب الى أذهانهم .

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالى أربع أو خمس

سنوات • ورد الفعل الذى ظهر فى هذه المرحلة من دعوة النبی صلى الله عليه وسلم كان يتجلى فى ثلاثة أشكال :

١ - آمن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة •

٢ - نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه الدعوة ، أما لجهلهم أو انجرافهم وراء الأهواء والاغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم •

٣ - بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدى محدود مكة وأهلها من قريش وتنتشر فى نطاق أوسع نسبيا •

المرحلة الثانية :

ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة • وقد نشأ فى هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الاسلامية وبين الجاهلية السائدة ، وامتدت سلسلته قرابة ثمانى أو تسع سنوات ، لا فى مكة فحسب أو بين قريش فحسب • بل كل من كان يريد بقاء الجاهلية الأولى فى معظم أقطار جزيرة العرب ، شمر عن ساقه وكشر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة •

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكايد لقمع هذه الدعوة ، قاموا بدعاية كاذبة ، وألقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات ، وقذفوا الوسائس الملوثة فى قلوب الناس ، وحاولوا صد الذين كانوا يجهلون أمر النبی عن استماع ما يقوله ، وانهالوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بألوان من الظلم وأنواع من التنكيل ، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية ، ونقصوا عليهم العيش حتى اضطر كثير منهم الى الهجرة من ديارهم الى بلاد الحبشة مرتين • وآخر الأمر هاجر جميعهم الى يثرب (المدينة المنورة) • وعلى رغم هذه

المعارضة الشديدة والتي كانت فى ازدياد مستمر ، بقيت الحركة فى انتشار وازدهار • ولم يكن بيت من بيوت مكة الا وقد آمن فرد من أفرادہ • وكان مما يزيد المعارضين عداً وحنقاً لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبنائهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتبعون دين الله وليس ذلك فحسب ، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس فى سبيله ثم نهضوا يقاتلون ذوى قرباهم •

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الاولى وينضمون الى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم ، وحينما كانوا ينخرطون فى سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون فى صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأو البعيد ، حيث لم تتمالك الدنيا الا الاقتناع بسمو الدعوة التى كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منها ما تصنع •

وفى غضون هذا الصراع العنيف الطويل ، كان الله تعالى ينزل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة ، كلمات (آيات) هياجة فى جريانها كالنهر الجارى وفى قوتها كالفيضان الهائل وفى تأثيرها كالنار المضطربة وفى هذه (الآيات) أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية ، وبعث فيها الوعى الجماعى الحركى ، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الاخلاق وطهارة السلوك ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيم وطرق اقامته ، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التى فيها نعيم مقيم • واستحثوا على الجاد فى سبيل الله بصبر واستقامة ومعنوية عالية • وعبئت قلوبهم بشوق دافق الى جنة عرضها السماوات والأرض ، وملئوا بحماسة دفعتهم الى مواجهة أقسى محنة والوقوف فى وجه أعنى عاصفة من المعارضة •

هذا فى جانب المؤمنين ، وفى الجانب الآخر أنذر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله ، وحاربوا دعوته وأعرضوا عن الحق ،

بما صارت اليه الأمم التي خلت من قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها . ودعوا للاعتبار بآثار المؤتفكات التي كانوا يمرون على أنقاضها مصبحين وممسين أثناء أسفارهم وعرضت عليهم أدلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التي كانوا يشاهدونها في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وكانوا يرونها ويشعرون بها في أنفسهم وفي حياتهم في كل آن كما بين لهم بطلان موقف الاشراك بالله والادعاء بالاستقلال المطلق ، وجود الآخرة والاصرار على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، بدلائل ناصعة تستقر في القلوب وتنفذ الى الأعماق البعيدة من العقول . وأزيلت آخر شبهة عالقة بأذهانهم عن صحة الدعوة ، ورد آخر اعتراض منهم برد معقول ، وحل آخر تعقيد ذهني كانوا قد وقعوا فيه أو كانوا يوقعون غيرهم فيه .

وخلاصة القول أن الجاهلية حوصرت من كل جهة وضيق عليها خناقها بشكل لم تنبؤ لها معه أية مكانة في عالم العقل والحصافة والجدية . ثم أُنذروا - مع ذلك - بغضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب جهنم ، وونجوا على ما كانوا عليه من رذالة الأخلاق ، ومنهج الحياة الباطل ، وتقاليد الجاهلية ، ومعاداة الحق وايداء المؤمنين ، وعرضت عليهم المبادئ الأساسية للأخلاق والهدى التي نشأت عليها - وستنشأ - حضارات صالحة طاهرة في العالم كسبت رضى الله في كل دور من أدوار التاريخ البشرى .

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوى على عدة مراحل جزئية وفي كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها وبالتالي ظل النضال يشتد ، ونار المعارضة تتسع وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلا جديدا من العقائد والأفكار وتناضل نوعا جديدا من الفئات المختلفة في أخلاقها ومواقفها ومن ثم فان آيات الله كذلك زادت تنوعا في بحثها وتلونا في عرضها وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المكي .

المرحلة الثالثة :

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاما تكافح وتجاهد واذا بها تقفوز بمقر لها في يثرب (المدينة المنورة) ودعت أتباعها من أنحاء جزيرة العرب الى هذا المقر ، لتكون مجتمعا مستقلا وتمتجمع طاقاتها في مركز واحد فهاجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعظم أصحابه الذين اتبعوه باحسان الى المدينة المنورة . وبذلك دخلت الدعوة الاسلامية المرحلة الثالثة :

انقلب الوضع في هذه المرحلة رأسا على عقب ، فالامة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة ، وبدأ النضال المسلح من أصحاب الجاهلية القديمة ، وبدأت الدعوة تواجه أمم الانبياء السالفة (أى الامة اليهودية والامة المسيحية) ، كما بدأت تتخلص كذلك من المنافقين الذين تسربوا الى الكيان الداخلى للامة الاسلامية . وبعد مقاساة الصراع العنيف والكفاح الشديد عشر سنوات بلغت الحركة الاسلامية في نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة أصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين وانفتحت أمامها أبواب بث الدعوة على الصعيد العالمى ، والقيام بحركة اصلاحية عبر الحدود وقد اشتملت هذه المرحلة أيضا على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بها . وتحقيقا لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم من الكلمات (الآيات) ما كان أسلوبها يتنوع بتنوع الحاجة . فمرة كان أسلوبها أسلوب الخطاب المجلل الرنان المتأجج بنار المشاعر ، وأخرى أسلوب الأوامر والمراسيم الملكية وثالثة أسلوب دروس المعلم ، ورابعة أسلوب تفكير المصلح الناصح . وجاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدينة الصالحة وعلى أى المبادئ والأنظمة تقام مختلف نواحي الحياة وبأى طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذمة من الكافرين وعلى أى لون توطد العلاقات مع أهل الكتاب ، وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والاقوام

المعاهدين وكيف تعد هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها للقيام بمهمة خلافة الله في الأرض :

هذه الكلمات أو الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام وكانت تنبهم على مواطن ضعفهم وتحرضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وتعطيهم دروسا في الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم في الانتصار والهزيمة ، وفي المحنة والراحة وفي السراء والضراء وفي الأمن والخوف وما الى ذلك من حالات وكانت تصنع منهم جماعة تتوغل فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بحق ، ويتابعوا مهمته في الدعوة والإصلاح . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) تخاطب الذين حرموا من الإيمان من أهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين ، وتدعوهم الى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل الاقتناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة ، وبالنصيحة البالغة والتقريع الشديد وبالتخويف من عذاب الله وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والامور المتضمنة للدروس القاسية . ذلك لتقييم عليهم الحجة ، وتسدد عليهم منافذ الأعداء . وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المدني .

القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة :

ويتضح مما ذكرنا آنفا أن القرآن كان نزوله مقترنا بالدعوة وتطورها وسيرها فنزلت منه قطع مختلفة ، نجما نجما ، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها . وذلك في فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاما كاملا . ومن الجديهي إذن أن مثل هذا الكتاب يوزع الترتيب التأليفي من النوع الذي يختاره الطالب في اعداد البحث لاجل الحصول على شهادة الدكتوراه . كما أن القطع المختلفة الأحجام التي كانت نزلت

منسجمة مع تطور الدعوة ما كانت تنشر في رسائل وكتيبات بل كانت تلقى في خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلغ من فرد لفرد لذلك ما كانت تصاغ على أسلوب التأليف ، بل كانت تعرض في الأسلوب الخطابى الذى لا يندسج على منوال محاضرات الاستاذ فى الجامعة ، بل كان يشابه خطبة الداعية الذى عليه أن يستهدف إثارة العواطف بجانب مناشدته العقول ، وعليه أن يواجه كل نوع من أنواع العقليات ، وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته فى ظروف متباينة وأوضاع متضاربة . فمن اقرار الدعوة فى سويداء القلوب الى مخاطبة العقول بمختلف النظريات الى استشارة الفيض من المشاعر ، الى كسر شوكة المعارضة ، الى تربية الاتباع واصلاحهم ، الى نفخ الحماس فى نفوسهم الى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء الى ارغام المنكرين على الاقرار ، الى دحض حجة الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الأدبى . وما الى ذلك من الامور التى يجب على قائد الدعوة وقائد الحركة ان يقوم بها على أكمل وجه وأوفق منهج .

ونظرا لكل ذلك فان الكلمات (الآيات والصور) التى أنزلها الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما يتعلق بمهمته الجلية كانت فى أسلوب خطابها على نفس الأسلوب الذى يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذى تعيش فيه . ومن هنا لا يحسن بنا ان نطلب منه الأسلوب الذى يخص محاضرات الجامعة ودروسها .

سر التكرار فى القرآن :

ومن هنا يتضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ، سر ترديد بيانات القرآن بكثرة اذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة أن لا تحدث الا بما يناسب المرحلة التى تعيش فيها ، وما دامت تعيش فيها لا تتعرض لتحديث يخص المراحل المقبلة بل تظل تردد حديثها عن المرحلة التى هى فيها ولو استغرقت الشهور أو السنين . وقد تتعجزر الطوائف

وتسأم الاذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر وفي صياغة واحدة تتردد .
لذلك فان المباحث التي تخص مرحلة من المراحل وتمس الحاجة الى عرضها مرة بعد أخرى كان يجب أن تصاغ في مرة ألفاظ مبتكرة وأساليب ناضرة ومحاسن بيانية غضة طرية تستهيهي الانفس وتتلقفها القلوب . وبذلك تصبح كل مرحلة من المراحل متينة القواعد ، محكمة الدعائم ، مستقيمة البناء . ويجب فوق ذلك أن لا يعزب عن البال تلك المبادئ العامة والقواعد التي تعتمد عليها الدعوة في كل حين من الاحيان وفي كل وضع من الأوضاع منذ الخطوة الاولى حتى تمامها وكمالها بل لا بد من أن تلفت اليها الانظار في جميع مراحل الدعوة لها . كان الحال . وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن على موضوعات ثابتة ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع .

فمثلا ما يتعلق بعقيدة التوحيد ، وصفات الله ، الآخرة ، ومسئوليتها وعذابها ، وثوابها والرسالة والايمان بالكتاب وتقوى الله والصبر ، والمصابرة ، والتواكل وما الى ذلك من حقائق أساسية فانك لتري القرآن يعيد ذكرها ويردد بيانها في جميع سورة المكية والمدنية ، لأن الحركة لا تستطيع الاغماض عنها أو التساهل فيها في أية مرحلة من مراحلها . ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الاسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذة .

كيف رتبت آيات القرآن :

واذا بسبرت غور ما سبق قوله لتوصلت الى جواب مقنع على ما يدور في خلدك من سؤال : لماذا لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن حسب ترتيب نزوله عليه ؟

ان القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة منذ

بدئها حتى بلغت أوج الكمال . ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة فى شىء أن يختار لتدوين الأجزاء المنزلة نفس الترتيب الذى كان ملتثما مع سير الدعوة وتطورها ، بل الأمر كان بحاجة الى ترتيب جديد يكون أكثر انسجاما وأشدّ تجانسا وأدقّ ارتباطا مع الواقع الآتى بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة ، لأن المخاطبين الاولين لهذه الدعوة فى بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الاسلام بالكلية ، لذلك غشاهم الوحى بأوليات التعليم وبديهيات الايمان ثم لما اكتملت الدعوة وبلغت ما شاء الله ان تبلغه أصبح مخاطبوها الاولون من الذين آمنوا بها وكونوا أمة مستقلة ، أصبحوا مسئولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التى سلمها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بعد كمالها فكرة ومنهاجا وهكذا صار الأمر الأهم هو أن يدرك هؤلاء المؤمنون ، قبل غيرهم واجباتهم ومناهج حياتهم ، وأن يعرفوا الفتن والأمراض التى ابتليت بها أُمم الانبياء فيما مضى ، قبل أن يتقدموا بهداية الله الى البشرية التى ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف .

وهناك حقيقة أخرى تتكشف للانسان اذا ما وفق الى معرفة أسلوب القرآن ، وهى أن وضع الآيات المتجانسة فى المباحث فى موضع واحد لا يوافقه طبيعة هذا الكتاب ، بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو أن يجد القارئ أثناء دراسته للقرآن الآيات المكية (أى التى نزلت فى مكة) تتخللها الآيات المدنية (التى نزلت فى المدينة) والمواضع الابتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الابتدائية . وهكذا يلوح أمام عينيه منظر الاسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقا مثلثا بصفة مستمرة ، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها .

لو جمع القرآن على الترتيب الذى نزل عليه لما كان هذا الترتيب مجديا ومفهوما للعصور التى تلت عهد النبوة ، بدون أن يضاف الى

القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التي نزل فيها كل جزء من أجزائه كملحق للقرآن . الأمر الذي كان يناقش الغرض الذي شاء الله لأجله أن يدون كلامه ويحفظ في مصحف . والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصا نقيا لا يشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره يرتب على ما هو عليه من الإيجاز والاعجاز معنى وصورة ، لتتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد . الصغير والكبير ، الناشئ والكهل ، الرجل والمرأة ، الرجل العادي ، والعالم الصليح ، في المدن والقرى ، في كل زمان ومكان ، في كل حال وواقع . وليدرك جميع الناس على الأقل - مهما اختلفت درجات عقولهم - ماذا يريد الله منهم وماذا لا يريده منهم . ومن الواضح أن لو أضيف إلى القرآن ، تاريخه المطول وجعلت تلاوته أمرا لازما مع تلاوة القرآن ، لصاح هذا الغرض .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يعترضون على الترتيب الحالي للقرآن يظنون عن سوء فهم أن هذا الكتاب قد أنزل إلى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع .

وفيما يتعلق بترتيب القرآن يجب أن يعرف الدارس كذلك أن الترتيب الحالي ما قام به الذين جاءوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم به هو توقيفي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتابه وكان يأمر بكتابتها ويأمر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا ، وكذلك حين ينزل شيء من القرآن (أى آية أو بضع آيات) ولم يرد جعله سورة مستقلة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعه كذا من سورة كذا . ووفق هذا الترتيب نفسه كان صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن في الصلوات وغيرها من المناسبات . ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسونه . ولهذا كان من الثابت تاريخيا أن اليوم الذي أكمل فيه نزول القرآن أكمل

فيه ترتيبه ومرتبته هو الذى أنزله • والذى أنزل القرآن على قلبه
رتب القرآن على لسانه • وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه •

تحويل القرآن :

وربما أن الصلوات كتبت على المسلمين منذ البداية (١) وتعينت
قراءة ما تيسر من القرآن فيها • فلذلك بدأت فى المسلمين حركة
حفظه فى الصدور ، مقرونة بنزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة
والسلام • وكلما كان ينزل منه شيء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن
ظهر غيب • ولم ينحصر حفظه بكتابته فى العصب وقطع الأدم وكسر
الاكتاف (٢) التى كان يكتب فيها كتاب النبى صلى الله عليه وسلم
محت رعايته • بل كان يرتسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات
فالمئات ثم الآلاف فالملايين من الصدور ومن هنا ما كان لباطل أن يأتيه
من بين يديه ولا من خلفه ليغير فيه ولو كلمة •

ولما ظهرت فتنة الردة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم
تام الصحابة رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع دابرها •
فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة الذين كانوا يحفظون
القرآن كله • الأمر الذى بعث عمر رضى الله عنه على القول بأنه

(١) وليكن القارئ على ذكر أن الصلوات الخمس كتبت على
المسلمين بعد البعثة بسنوات ، أما الصلوات كعبادة فقد أمر بها
المسلمون منذ اليوم الأول • ولم تمض على الإسلام ساعة لم تكن
الصلوات فيها واجبة مطلوبة •

(٢) العصب بضم فسكون وبضمتين أيضا جمع عسيب وهو
جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض •
والأدم بضمتين وبفتحتين أيضا جمع أديم : وهو الجلد المدبوغ ،
والاكتاف جمع كتف : وهو عظم عريض يكون فى أصل الحيوان •

لا ينبغي الاعتماد على صورة واحدة في باب المحافظة على الذكر الحكيم بل يجب الاهتمام بحفظه في قرايطيس الصحف مع حفظه في طيات الصدور . فذكر عمر رضى الله عنه ضرورة هذا الامر لابي بكر رضى الله عنه الذى تردد بادي ذى بدء ، فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله لذلك صدر ابي بكر وكلف زيد بن ثابت الانصارى الذى كان من كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان يكتب الوحي أن يتتبع القرآن ويجمعه . والطريقة التى قررت لاستكمال هذا الامر الخطير هى أن يجمع كل ما تركه النبى صلى الله عليه وسلم من أجزاء مكتوبة فى صحف من الرقاع والجلد ونحوها ، ويؤخذ كذلك ما يوجد عند أى واحد من الصحابة مما كتب من القرآن ، ثم يستعان بحفاظ الصحابة فى ضبط المحفوظ . وبيء على شهادة اجماعية من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود اية غنطة فى المکتوب والمقروء تسجل نمطة لفظه من القرآن وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخة من القرآن فى الصحف ، واودعت عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها التى كانت تحفظ القرآن كله فى صدرها . وأذن لعامة المسلمين أن ييسحوا بها أو يقابلوا ما سدهم من المکتوب عليها .

وكانت لغات القبايس فى الجزيرة العربية تختلف بعضها عن بعض فى القراءات واللهجات شأنها شأن اختلاف المدن والمديريات فى بلادنا (باكستان) مع أن لسان جديدها واحد أى الارىواو البنجابى أو البنغالى والقرآن كان قد نزل بلسانهم ولكن أجزأ فى اول الامر للقبائل الاخرى أن يقرأ أهل كل قبيلة القرآن بلغتهم وبما جرت عليه عادتهم ، لأن ذلك لا يؤدي الى اختلاف معان موجبة لاختلاف أحكامه بل بذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة ولما اتسع نطاق الفتوح الاسلامية ، وتعدى العرب صحاريهم القاحلة وفتحوا الاقطار الشاسعة من العالم ودخلت الأمم الاخرى فى دين الله واختلط العرب بالعجم ، وتأثرت بذلك الاختلاط لغتهم خشي الناس حدوث أنواع

من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرآن بلهجاتهم وعاداتهم التي درجوا عليها كان يسمع أحدهم غيره يقرأ كتاب الله بلغة لم يألّفها عو فيظه يحرف القرآن معتمدا فيكفره ويقتل معه . أو يتدرج اختلاف الالفاظ والتلاوة الى فتح باب التحريف والتصحيف أو أن تفسد لغة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرآن على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته .

وحرصاً على ابعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضى الله عنه على مشورة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتي ضبطت في عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وتفرق في البلاد الاسلامية ويمنع من التداول ماسواه من القرآن المكتوب بقراءة أخرى أو لهجة مخالفة ففعل عثمان ذلك وعهد الى جماعة من الصحابة بجمعها فى مصحف واحد وكتب منه نسخا كثيرة وزعت على الأمصار وبعث مع كل مصحف من يرشد الناس الى قراءته .

ان المصحف الذى بين أيدينا اليوم هو على طبق رسم مصحف الصديق الذى نسخ منه عثمان رضى الله عنه نسخا عديدة تحت اشرافه وفرق منها فى المدن والأمصار ولا تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعيد من الأماكن فى الدنيا . والذى يشك فى « تمام حفظ » الذكر الحكيم فله أن يشتري نسخة من المصحف الكريم من مكتبة فى افريقية الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من أحد الحفاظ فى جاوا ، ثم يقابله بما فى المكتبات الكبيرة فى العالم من المصاحب الاثرية التى كتبت فى مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه الى يومنا هذا فاذا وجد فيه فرقا ولو فى كلمة من الكلمات أو فى حركة من الحركات فمن واجبه أن يطلع على الدنيا بهذا « الاكتشاف التاريخى المدهش » .

وللمرتاب أن يرتاب فى كون القرآن منزلا من الله تعالى ان

شاء . أما كون ما بأيدينا اليوم من القرآن هو عين القرآن بنصه وفصه الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وأقرأه الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك والارتياح فيها . لا تجد شيئاً مما توارثته الدنيا فى التاريخ البشرى الطويل يكون على ما عليه القرآن من الثبوت القطعى المحتوم ومن يشك فى صحته فقد يشك أيضاً فى ظهور الامبراطورية الرومانية على الأرض المعمورة فى عصر من عصور التاريخ ، أو فى الحكم المغولى فى الهند قبل قرون ، أو فى وجود شخصية « نابليون » وابداء الشك فى ظواهر تاريخية كهذه ليس من خصائص العالم والمعرفة وانما هو من أمارات الجهالة والغباوة .

منهج لدراسة القرآن :

ان القرآن كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لأجل عدد لا يحصى من الاغراض . لذلك يتعذر على أن أقدم للدارس مقترحاتى فى صدد دراسة للقرآن تستهدف تحقيق مطالب وأغراض هذا العدد الهائل من الواردين عليه ولا يجزئنى من هذه الكتلة البشرية الا الذين أشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة مطالبه وتوجيهاته فى شئون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة . فأحب أن أعرف هؤلاء منهجا لدراسة القرآن ، ثم أشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التى يواجهها كل دارس بصفة عامة .

يجب - كخطوة أولى - على كل من يريد فهم القرآن ، سواء آمن به أو لم يؤمن أن يخلى ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات ، ويظهره من سائر ما يمكنه من الرغبات الموالية أو المناوئة ، ثم يكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه لفهمه . أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات فى أذهانهم مقدما فما يقرؤون بين دفتيه الا تصوراتهم أنفسهم . ولا يجدون شيئاً من رائحة القرآن . ولا يصلح هذا المنهج

لدراسة أى كتاب من الكتب ، فكيف بالقرآن الذى لا يفتح كنوز معانيه أبدا للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج .

منهج الدراسة التفصيلية الشاملة :

ثم ان الذى لا يريد من القرآن الا معرفة اجمالية فعسى أن يكفيه دراسته مرة أو مرتين . أما الذى يريد أن يغوص فى أعماقه ، ويدرك أسرارها فلا يكفيه أن يدرسه أربع أو خمس مرات . وعليه أن يفرغ اليه تكرارا ومرارا ، ويقبل على دراسته اقبالا لا ملل فيه ولا كلل ، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة ، وأن يأخذ معه - كطالب من الطلبة - الأدوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجل ما يعن له من نقاط هامة خلال الدراسة . والذين يرغبون فى دراسته على نهج قويم كما قلنا ، عليهم أن يستوعبوا قراءته فى ختمتين لمجرد أن يلمح أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام الذى يفاضل الدنيا عليه كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الاجمالية فى مشاهد القرآن العامة ويتبينوا التصورات الاصلية التى يقدمها للناس ومعالن نظام الحياة التى يبينها على أساس هذه التصورات . وفى خلال هذه المرحلة الممتعة اذا خطر فى ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البت فى شأنه بل يقيّدونه فى مذكرة ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجد ، فهم سوف يعثرون غالبا على الجواب فيما يقبل من الصفحات . واذا عثروا عليه قيّدوه كذلك فى المذكرة أمام السؤال . واذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسته كجولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتأنى دثارهم . وأقول بناء على تجاربى لا يكون من سؤال الا وتجدون جوابه ، وما من معضلة الا وتبلغون حلّتها فى دراستكم العميقة الثانية . اللهم الا فى النادرة النادرة التى تتقاصر عنها أفهام الرجال .

هذا ، وبعد تحقق النظر الاجمالى الشامل فى القرآن على ما أشرنا ، على الدارس ، أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن وفى

هذا الصدد يجب عليه أن يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التي يمر بها أثناء الدراسة ، فيحاول - مثلا - أن يعرف ما هو المثل الانساني الأعلى الذي يحبه القرآن ، وما هو النموذج الانساني الذي يكرهه ويبغضه . وتحقيقا لهذا المطلب يسجل في مذكرته خصال « الانسان المطلوب » في نظره القرآن في عمود ، وخصال « الانسان المرفوض » في نظر في عمود مماثل وجها لوجه . كما يحاول أن يعرف - كمثال آخر - موجبات نجاح الانسان وسعادته حسب مقياس القرآن ، والأسباب التي يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والنشقاء وأصح طريقة لمعرفة هذا المطلب أيضا ، بأبعاده الشاسعة وتفصيله الشاملة ، أن يقيم في مذكرته عمودين مماثلين : احدهما لموجبات السعادة ، والثاني لموجبات الخسران ، ويسجل كل ما يصل اليه في هذا الموضوع . وقياسا على ذلك ينبغي له أن يقيد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرآن الحكيم في كل مسألة من مسائل الحياة من العقائد والاخلاق والحقوق والواجبات والاجتماع والمدنية ، والاقتصاد والسياسة ، والتشريع ونظام الجماعة ، والحرب والمهادنة وما الى ذلك ، لكي يستبين على أى شكل تتكون كل شعبة من شعب الحياة ثم على أى شكل تتكون الحياة الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها في الاطار العام .

منهج دراسة مسألة بعينها :

ثم اذا أراد الانسان أن يتبين وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديما وحديثا بكل امعان ، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية ، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل اليه في هذه المسألة عبر التاريخ ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولا ، وما هي النقطة التي لم يستطيع التفكير الانساني تخطيها حتى اليوم . واذا حقق ذلك ، فله أن يدرس القرآن واضعا أمام عينيه

الجوانب التى تتطلب الحلو فى هذه المسألة . ومما جربته أن الانسان اذا درس القرآن باحثاً فى مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت ، فانه يفاجأ بالردود على أسئلته فى آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود .

شروط أساسية لدارس القرآن :

ومهما يتخذ الانسان من التدابير ويستخدم من الوسائل لفهم القرآن فانه لا يصل الى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن .

ان القرآن ليس يحوى نظريات مجردة وأفكاراً محضه حتى تدرسه جالساً على الأريكة ثم تفهم جميع مضانيه . كما أنه ليس بكتاب يبحث فى اللاهوت فتحل جميع أسرارهِ ومكوناتهِ فى المعاهد والزوايا ان هذا الكتاب ، كما قلنا فى مستهل المقدمة كتاب دعوة وحركة وبمجرد نزوله أخرج رجلاً وادعاه دمثاً ، سليم الفطرة كريم الشيم ومحب للسكوت ، من زاوية الانعزال ، وأوقفه فى مواجهة العالم الذى كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ويجارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال ان هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة كل نفس زكية من كل بيت وجمعها تحت نواء صاحب الدعوة . ان هذا الكتاب أخرى غيظ كل فنان مفسد وجعله يقاتل أنصار الدعوة ليهلك من هلك عن بيعة ويحيى من حي عن بيعة .

ان هذا الكتاب هو الذى قام بتوجيه الحركة الاسلامية الهائلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة ، والتى بدأت عملها من صرخة فرد واحد وانتهت فى نهاية المطاف الى اقامة الخلافة الالهية فى الأرض . وهذا الكتاب هو الذى تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البناء

فى كل مرحلة من المراحل وفى كل خطوة من الخطوات خلال المعركة
المجيدة النصارية بين الحق والباطل .

اذن فكيف يتأتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضمّر هذا
الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه تنطق بكلماته ،
وبدون أن تنزل الى ميدان الصراع بين الدين والكفر ، وتغير قدميك
فى معركة الاسلام والجاهلية وبدون أن يصادفك المرور بمنزل من
منازل هذا الكفاح .

لا تستطيع أن تنهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور الى
حين تحكم هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة الى الله وتخطو جميع خطواتك
كما يوجهك وكيفما يعلمك . ومن هنا لابد أن يستقبلك جميع
ما استقبل حامليه من التجارب والحن : تشاهد مشاهد مكة والحبشة
والطائف ، وتواجه المراحل الممتدة من بدر الى حنين الى تبوك
وتتشابك مع « أبى جهل » و « أبى لهب » وتلاقى المنافقين واليهود ،
وترى وتختبر كذلك كل النمذاج الانسانية مارا بأسابقين الأولين
الى المؤلفة قلوبهم . نهذا سلوك فريد لا يماثله أى نوع من السلوك ،
وأسميه « السلوك القرآنى » ومن شأنه أنه كلما مررت بمنزل من
منازله تطالعك آيات وسور من القرآن تحيطك علما بأن هذا هو
المهبط الذى نزلت فيه ، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم
وفى ذلك الحين لا يستبعد أن يغيب عن نظر « السالك » شىء من
أسرار اللغة والبلاغة والمعانى والبيان الا أنه يستحيل أن يضمن
القرآن بالكشف عن جوهره وروحه أمام ذلك « السالك » .

ووفقا لنفس المبدأ لا يستطيع الانسان أن يدرك مغزى أحكام
القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمادية ومبادئه
ونظمه فى مختلف نواحي الحياة ما دام لا يطبقها فى الحياة ،
لا يدرك مغزاها فرد يعيش فى حل منها فى حياته الفردية ولا تدركه
أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكا يخالف منهجها .

القرآن كتاب هداية للبشرية كافة :

وكل رجل شريفاً كان أو وضيعاً يعلم أن القرآن أعلن أنه جاء لهداية النوع البشرى بآجمعه ولكن إذا تناوله أحد ليدرسه يرى أنه لا يخاطب إلا من وجد من العرب حين نزوله وإذا كان يدير وجهه أحياناً إلى كافة الناس فإن معظم ما يقول يرجع إلى ما يختص بذوق العرب وحدهم وببيئتهم وحدهم وتاريخهم وتقاليدهم وحدهم والإنسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل : إن كان الكتاب الذى أنزل الهداية لكافة البشر لماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحنية وقومية ؟ بل يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر فى شك ويقولون : ربما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما بعد ما لا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس إلى الأبد .

وأقول للذى أثار هذا الاعتراض لا لجرد الاعتراض ، بل أراد معرفة الحقيقة ينبغي أن يدرس الكتاب ويحيط تحت النصوص التى دعا فيها القرآن إلى عقيدة أو فكرة أو تصور ، أو عرض فيها مبدأ فى الأخلاق أو قاعدة إلى الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم ، وتنحصر بحكم الزمان والمكان فى حدود لا تتعداها !! أما مجرد كونه يخاطب أناساً عاشوا فى زمان بعينه ويتناول ما حولهم من الموجودات كمعادن للاستشهاد يبنى عليها دلائل التوحيد فهذا وحده لا يكفى لأن يحكم بأن دعوته كانت تختص بزمن دون الأزمان ونداءه كان موجهاً إلى قطر دون الأقطار . وبدلاً من ذلك ينبغي أن يتبين مؤشر الاعتراض أن الذى جاء به القرآن فى رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك فى الدنيا كما صدق على شرك العرب .

ألا يحسن بنا بعد ذلك أن نلجأ فى استصلاح عقائد المشركين فى كل عصر ومصر إلى نفس الدلائل والحجج التى جاء بها القرآن ؟

ألا يجوز أن نستعمل أسلوب القرآن فيما يستدل به على إثبات التوحيد في كل زمان ومكان بعد تعديل يسير ؟

إذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بأن دعوة القرآن الخالدة العالمية دعوة آنية ومحلية استنادا الى أنها عرضت على قوم بأعينهم في زمن بعينه وما من فلسفة أو نظام للحياة أو مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الألف الى الياء في أسلوب محض Abstract ولم تتمثل في أوضاع واقعية أو صور حية .

هذا النوع من التجريد لا يمكن أن يوجد في عالم النظريات وان افترضنا وجوده فان النظرية التي تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعدو حبرا على الورق ويستحيل أن تنساب في حياة الناس وتتحول الى نظام عملي .

ثم اذا أريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية على صعيد عالمي فلا يلزم لذلك أبدا أن تجعل الدعوة عالمية من البداية .

بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو أن تنتشر الحركة ما تدعو اليه من عقائد ونظريات ومبادئ في البلد الذي نشأت فيه ، وأن تقرها في أذهان أناس يعرف القائلون بالحركة لغتهم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وأن تطبقها في الحياة العملية وتقيم عليها نظاما موفقا للحياة ثم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به .

وبهذا الطريق وحده تلتفت اليها الأمم الاخرى ويستقبل اليها أصحاب العقل الراجح والرأى السديد من تلك الأمم ليلتقوها ويسعوا لترويجها في بلدانهم ، وعلى هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على أمة دون غيرها بادية ذي بدء وان استنفذ هذا العرض كل طاقات

التحليل والاحتجاج لاقتناع تلك الأمة وتثبيتها ليس دليلا على كون ذلك النظام قومياً محضاً .

والخصائص التي تميز النظام القومي من النظام العالمي ، والنظام المؤقت من النظام الخالد ، هي أن النظام القومي اما أن يدعو الى تفصيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة ، واما أن يؤمن بمبادئ ونظريات لا تستطيع أن تزوج وتزدهر في الشعوب الأخرى . وعلى العكس من ذلك فان النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطى الجميع حقوقهم بدرجة متساوية ، وتكون مبادئه عالمية الصيغة ، عالمية الأهداف والمثل . ثم ان النظام المؤقت ينشئ بناء على قواعد تنفذ قابليتها للعمل بمرور الايام ، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة .

نهل من دارس للقرآن يدرسه واضعا امام عينيهِ الخصائص المشار اليها . ثم يستطيع أن يحدد لنا ماآخذ يبني عليها ظنه في كون النظام المعروض في كتاب الله نظاما وقتيا وقوميا ؟

القرآن كتاب مبادئ عامة :

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد ألقى في سمعه كذلك ان هذا الكتاب عبارة عن « مرشديات للتوجيهات التفصيلية » و « دليل للمستور » ثم اذا انصرف الى قراءته لا يجد فيه أحكاما وأنظمة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك بل أن الواجبات الهامة كالصلاة والزكاة التي يعيد الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم يدون لها أحكام تفصيلية ومثل هذا الأمر يشوش ذهنه ويدفعه الى التساؤل : ما هو المراد من كونه مرشدا للتعاليم الالهية .

وكل ما ينشأ هنا من تشويش فى ذهن الانسان مرده أن يغيب عن باله احدى نواحي الحقيقة ، وهى أن الله لم يفزل الكتاب فقط ، بل أرسل معه رسوله أيضا • وأقول على سبيل التمثيل : اذا كان المشروع المقصود هو وضع تصميم لبناء وتقديمه للناس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم • ففى هذه الصورة لابد لنا من تخطيط مطول يرشدنا الى كل جزء من أجزاء البناء • أما اذا ولى أحد المهندسين من قبل الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة ، فإن هذا المهندس يشيد البناء وفق هذه التوجيهات ، ومن الخطأ - إذن - أن تصرف أعيننا عن المهندس وما شيده من البناء • ثم ننشد تفصيلات الجزئيات فى التصميم ونشكو نقصه ان لم نجد ما فيه •

وكذلك القرآن ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخالقية للنظام الإسلامى بوضوح ثم يتبعها تثبيتها قويا بكلا الطريقتين : التدليل العقلى والتحريض العاطفى أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الإسلامية فإنه لا يرشد الانسان اليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل انه حدد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة ونصب معالم جليلة فى بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله •

حول الخلاف فى تفسير القرآن :

وكان من مهمة النبو صلى الله عليه وسلم تكيف الحياة الإسلامية فى ضوء هذه التعاليم • ولم يبعث صلى الله عليه وسلم الا ليحقق نمودجا من السلوك الفردى ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حية تتمثل فيها المبادئ التى قررها القرآن •

وهنا سؤال آخر يخالغ أذهان الناس : القرآن أنحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الهدى من الله تعالى ، وتفرقوا في الدين . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر توجد خلافات في تفسير أحكام القرآن وتاويلها لا بين المتأخرين فحسب ، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بين الصحابة أنفسهم ، الى درجة أنك لا تجد آية من آيات القرآن اتفق المفسرون على قول واحد في تفسيرها .

أليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذى ورد في القرآن ؟ اذا كان الجواب لا ، فأى اختلاف وأى فرقة تلك التى ينكرها القرآن وينحى باللائمة على أصحابها .

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجدر بنا فى هذا المقام أن نتناولها بالبحث المبسط . وحالا لما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفى الإشارة الى أن القرآن لا يمنع الخلاف النزهة البناء الذى يقع بين القائمين على تفسير الأحكام والقوانين ، بناء على دراساتهم الجدية المخلصة ، بينما هم يلتقون فيما يرجع الى أصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الاسلامية .

أما الخلاف الذى يذمه القرآن فهو الذى نشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة ، وانتهى به المطاف الى التكتل والطائفية الممقوتة والنزاع الداخلى وهذان الخلافان لا يتجانسان فى أصلهما ولا يتساويان فى نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد .

أما الخلاف من النوع الأول فهو جوهر الرقى والتطور ومصدر الحياة ونضارتها ولا بد من أن يوجد فى كل مجتمع مكون من أهل رأى والفكر ووجوده دليل الحياة والحيوية ، ولا يخلو منه الا مجتمع يتكون من أناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيل خشية ودمى لا حياة فيها .

وأما الخلاف من النوع الثانى فيعلم جميع أهل الأرض أنه مظهر فى كتلة بشرية الا ومزقتها شر ممزق وحطمها أشنع تحطيم . فظهوره من أمارات المرض لا من بشائر الصحة ، ولم تكسب أمة من الأمم منه الا نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة .

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق فى الصورتين التاليتين :

فى الصورة الأولى : يجمع جميع الناس على طاعة الله ورسوله ، ويعتقدون فى الكتاب والسنة مصدرين للاحكام والتشريعات ، ثم يختلف امامان من أئمة الاجتهاد فى تحقيق احدى المسائل الفرعية أو قاضيان فى فصل احدى الدعاوى ، ولا يجعل أحدهما المسألة التى اختلف فيها أو الرأى الذى يراه عمادا للدين ، ولا يعتبر الذى يخالفه فى ذلك خارجا عن دائرة الدين بل كلاهما يشبع رأيه بما عنده من الدلائل والمراجع الى أقصى ما يستطيع أن يتركه للرأى العام ان كان رأيه يتعلق بمصالحه ، والقضاء العالى فى البلاد ان كان الموضوع يرجع الى التحكيم ، ولنظام الجماعة الاسلامية ان كانت القضية قضية اجتماعية ، فيقبل رأى أحدهما أو كليهما .

وفى الصورة الأخرى : يجرى الخلاف حتى فى أسس الدين ، أو يختار عالم أو متصرف أو مفت أو مجادل أو زعيم رأيا فى مسألة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الأساسية ، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الأساسية للدين ، ويحكم على كل من يخالفه فى ذلك بخروجه عن دائرة الاسلام ، ويشكل من أنصاره عصابة ويقول ان هذه هى أمة مسلمة أصيلة ومن شذ عنها شذ فى النار وينادى صارخا : « عليك الانضمام الى هذه العصابة ان كنت مسلما والا فليست بمسلم » .

وثالثة يأتى بنتائج غريبة لمحاولته ايجاد وجوه للتناسق وذلك باجتهد شخصى متكلف .

والقرآن حينما يذم الاختلاف والتكتل والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية . أما الخلاف فى الصورة الأولى فنجد له أمثلة عديدة حتى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقره فقط بل استحسنه . ذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتحسرى والتحسس والفهم والفقه فى كيان الجماعة الاسلامية ، وكان يحلل على أن أصحاب الرأى والكفاءة فى الجماعة يوالون اهتمامهم الكبير للدين وأحكامه . وأن كفاءاتهم لا تتلمس حلولاً لمسائل الحياة من خارج الدين بل تتلمسها فى داخله . وأن الجماعة بجملتها تأخذ بمبدأ جدير بأن يكتب بالتبريد بدل الحبر . وهو الالتقاء على مبادئ الدين لكى تحافظ على وحدتها ، ثم اعطاء أهل العلم وقادة الرأى حريتهم فى الاجتهاد والاستنباط والتحقيق فى حدود سليمة لكى تتوفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم .

هذا ما عندى والعلم عند الله ، عليه توكلت واليه أنيب .

الموضوع	صفحة
كلمة المترجم	٣
أسلوب الوحي وأسلوب البشر في الكتابة	٣
معلومات أولية ضرورية	٥
أصل القرآن	٧
موضوع القرآن وبحثه الرئيسي وهدفه	١٠
مراحل نزول القرآن	١٢
المرحلة الأولى	١٢
المرحلة الثانية	١٤
المرحلة الثالثة	١٧
القرآن كتاب دعوة ومنهج وحركة	١٨
سر التكرار في القرآن	١٩
كيف رتبت آيات القرآن	٢٠
تدوين القرآن	٢٣
منهج لدراسة القرآن	٢٦
منهج دراسة مسألة بعينها	٢٨
شروط أساسية لدارس القرآن	٢٩
القرآن كتاب هداية للبشرية كافة	٣١
القرآن كتاب مبادئ عامة	٣٣
حول الخلاف في تفسير القرآن	٣٤